من البحث إلى النقد: تحولات المدرسة الأمريكية في درسها المقارن للأدب

❑ أ.د. عبد النبي اصطيف

ربما كان من أهم ما يميز ما بات يُعرف بـ "المدرسة الأمريكية في الدرس المقارن للأدب" عن نظيرتها ومنافستها "المدرسة الفرنسية"، عنايتها بالنقد، الذي لم تولِه الأخيرة المكانة التي يستحقها، ويتضح ذلك من خلال:

إشارات رينيه ويليك العديدة إلى أهمية النقد في مقالته المشهورة "أزمة الأدب المقارن" التي عُدَّت بياناً لهذه المدرسة يقول ويليك:

"أما البحث الأدبي الحقيقي فلا تعنيه الحقائق الميتة، بل تعنيه الخصائص والقيم. ولهذا انعدم الفرق بين التاريخ الأدبي والنقد الأدبي. إذ أن أبسط مشكلة من مشكلات التاريخ الأدبي تتطلب تحكيم العقل. فمجرد القول إن راسين أثّر على فولتير، أو إن هيردر أثّر على غوته يتطلب، حتى يكون ذا معنى، إلماماً بخصائص راسين وفولتير وهيردر وغوته، ومن ثم بالسياق التاريخي الذي ينتمون إليه، وهذه كلها عملية لا تنتهي من الموازنات والمقارنات والتحليلات والتميزات التي هي نقدية في جوهرها. لم يكتب تاريخ أدبي في السابق بدون اعتماد مبدأ من مبادئ الاختيار وبدون القيام بمحاولة لوصف الخصائص وللتقويم.

ومؤرخو الأدب الذين ينكرون أهمية النقد هم نقاد من دون علمهم ولو أنهم نقاد يكتفون بترديد ما قاله غيرهم، وبترديد المعايير المتوارثة عن مكانة الكتّاب وشهرتهم. إذ لا يمكن تحليل العمل الفني، أو وصفه وتقويمه بدون اللجوء إلى المبادئ النقدية مهما بلغ غورها في عالم اللاوعي ومهما بلغ من غموض صياغتها. وقد أَحْسَنَ نُورمَن فورستر حين قال في كتيّب لا يزال يحتفظ بفائدته وهو الباحث الأمريكي: إن المؤرخ الأدبي "لابد من أن يكون ناقداً من أجل أن يكون مؤرخاً". فالنظرية والنقد والتاريخ تتعاون في البحث الأدبي لتحقق المهمة الأساسية،

ألا وهي وصف العمل الفني وتفسيره وتقويمه أو وصف أيّة مجموعة من الأعمال الفنية وتفسيرها وتقويمها(1)

ويكتب أيضاً:

"إن البحث الأدبي هذه الأيام يحتاج بالدرجة الأولى إلى أن يعرف ماذا يدرس وعلى ماذا يركز. إذ يجب فصله عن دراسة تاريخ الأفكار، أو عن المفاهيم والعواطف الدينية والسياسية التي غالباً ما يقال إنها بدائل الدراسة الأدبية. فالكثيرون من أبرز الباحثين في الأدب وخاصة في الأدب المقارن لا يهتمون في الواقع بالأدب على الإطلاق، بل بتاريخ الرأي العام وبأقوال الرحّالة وبالأفكار الشائعة عن الشخصية الوطنية ـ أي بالتاريخ الثقافي العام ـ وهم يوسعون مفهوم الدراسة الأدبية توسيعاً يتطابق فيه هذا النوع من الدراسة مع تاريخ الإنسانية كله. لكن البحث الأدبي لن يحرز أي تقدم من الناحية المنهجية إلا إذا قرّر أن يدرس الأدب كموضوع متميز عن غيره من نشاطات الإنسان ومنتجاته. ولذا فإننا سنواجه مشكلة ما هو أدبي، وهي مشكلة الإستطيقا الأساسية، أي مشكلة طبيعة الفن والأدب"(2).

إشارة هنري رماك في مقالته المشهورة **"الأدب المقارن: تعريفه ووظيفته "إلى أن: "التاريخ والنقد يستطيعان ويجب عليهما أن يجتمعا للوفاء بوعود الأدب المقارن"(3).**

إشارة إدوارد سعيد في كتابه *الثقافة والإمبريالية* إلى التحول الذي شهده الأدب المقارن منذ السبعينات من بحث scholarship إلى نقد criticism:

"كان التراث الرئيسي لدراسات الأدب المقارن في أوربة والولايات المتحدة، منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية بزمن طويل حتى أوائل الـ1970 ات، خاضعاً بقوة لأسلوب من البحث يكاد يكون قد اختفى الآن. والسمة الرئيسية لهذا الأسلوب القديم، هي أنه كان بالدرجة الأولى بحثاً، ولم يكن ما أصبحنا نسميه نقداً"(4).

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة في هذا السياق هو:

كيف تم هذا التحول من البحث الأدبي إلى النقد الأدبي، وكيف بتنا نسمع عن "النقد المقارن" في الأوساط الأمريكية وغيرها، بعد أن ألفت أسماعنا مصطلح "الأدب المقارن" في الأوساط الأوربية؟ وما العوامل التي ساعدت عليه؟

وفي محاولة للإجابة عن هذا السؤال يمكن أن يشير المرء بداية إلى أن بعض أعلام الدرس المقارن للأدب (ولاسيما كلوديو غوين) يشكك بصلاحية مصطلحي "المدرسة الفرنسية" و"المدرسة الأمريكية" بسبب من بدائيتهما وعدم كفايتهما، ويفضل الحديث عن "الساعة الفرنسية"(5) (التي امتدت من نهاية القرن التاسع عشر وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية بوقت قصير، وكان فيها المقارنون الفرنسيون نماذج تحتذى في الدرس المقارن للأدب في مختلف التقاليد الغربية وغيرها) و"الساعة الأمريكية" التي زعزعت بدءاً من مؤتمر تشابل هيل الذي عقدته الرابطة الدولية للأدب المقارن في جامعة نورث كارولاينا في عام 1958م، وبالتدريج، الهيمنة المنهجية الفرنسية(6)، وقدمت بدائل استوحتها من تجربة الأدب الأمريكي المتعدد اللغات المشربة بمختلف الثقافات، التي حملها، ويحملها، المهاجرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية من مواطنهم الأصلية.

وإذا ما قبل المرء مفهوم "الساعة الأمريكية" بديلاً عن "المدرسة الأمريكية في الدرس المقارن

للأدب"، والتي بدأت على خفر في مطلع القرن العشرين وازدادت زخماً مع ارتحال العديد من المقارنين الأوربيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبيل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وبعدها، من الذين فروا بحريتهم، وحرية علمهم، إلى زعيمة العالم الحر آنذاك، هرباً من التضييق النازي والفاشي في أوربة، حتى غدت المثال والمآل، وتوجت مسعاها بتنظيم المؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن عام 1958 في تشابل هيل، في ولاية كارولاينا الشمالية، فإن أول ما يلاحظه في هذا المسعى في تلك الفترة وحتى عقد الستينيات في القرن العشرين، التأثير المحدود لما بات يدعى بالنظرية (الأدبية والثقافية) في طبيعة هذا الدرس، ويعود ذلك فيما يبدو إلى سببين أساسيين:

أولهما الهيمنة التي كادت أن تكون هيمنة مطلقة للنقد الجديد New Criticism على الدراسات الأدبية في الجامعات الأمريكية، وبخاصة مقاربته للنص الأدبي بوصفه كياناً مكتفياً بنفسه self-contained entity لا يتطلب تدبُّره غير النظر في أداته والتي هي اللغة الطبيعية، واستكشاف ما تنطوي عليه من دلالات تولّدها باستعمالاتها المجازية، خاصة وأن النص الأدبي في نظر النقاد الجدد ليس إلا أيقونة لفظية verbal icon إذا ما رغبنا في استعارة عنوان(7) أحد كتب ويليام، ك، ويمزات من كبار سدنة النقد الجديد.

ثانيهما الهيمنة المطلقة كذلك للمقارنين الأوربيين على الدرس المقارن للأدب بتأهيلهم الرفيع في فقه اللغات الأوربية، والمشفوع على نحو بيِّن بالانحياز المطلق إلى الأدب الأوربي الغربي بوصفه ذروة ما بلغته الإنسانية في مجال الفن اللفظي verbal art

وهكذا نشأ أنموذج في الدرس المقارن للأدب يقوم على المقارنة بين الأنداد من الأوربيين الغربيين من جهة، وعلى توظيف فقه اللغة في هذه المقارنة بين نصوص أولاء الأنداد الغربيين من جهة أخرى، وهو ما تحدث عنه كينيث سورين Kenneth Surin في مقالته "الأدب المقارن في أمريكا: محاولة لتأسيس نسب" التي ضمها مجلد *رفيق بلاك ويل للأدب المقارن* (الذي صدر عام 2011). يقول سورين:

"تطلّب أنموذج النسخة الأمريكية للأدب المقارن، المهيمن حتى الستينيات، المقارنة بين نصّين اثنين أو أكثر من الآداب الأوربية الغربية القومية (الأدب الإنكليزي، والفرنسي، والألماني، والإيطالي، والإسباني بشكل رئيسي) وبأدوات تفسيرية مستمدة من "فقه اللغة" الذي شكل القاعدة الأساسية لمقارنات كهذه.

وقد سمح أحياناً للآداب غير الأوربية الغربية، ولاسيما الروسي والإسكندنافي، بالدخول في هذه المجموعة، وبخاصة إذا ما تعلق الأمر، اتفاقاً، بمؤلفين مُقَوننين ومُترجَمين على نحو جيد (ففي حالة الروس، فإن شخصيات أنموذجية من أمثال بوشكين، ودوستويفسكي، وتولستوي، وتورغينيف، وأوبلوموف، وليرمنتوف، وغوركي، تخطر على البال مباشرة، وفي حالة البلدان الإسكندنافية ثمة بالطبع إبسن وستريندبرغ)"(8).

ومع حلول الستينيات بدأت الهيمنة المطلقة لهذا الأنموذج تتزعزع، وباتت مقولات النقد الجديد في الإعراض عن أية مساعدات معرفية خارجية في تحليل النص الأدبي ودراسته، أو بالأحرى الزهد بها، مثلما غدت المقاربة فقه اللغوية Philological approach للمقارنين الأوربيين الوافدين، موضع مساءلة شديدة، ولاسيما تركيزها المسرف على الأدب الغربي،

خاصة وأن عمالقة الدرس المقارن للأدب من المهاجرين الأوربيين إلى الولايات المتحدة (كورتسيوس، وأورباخ، وشبتزر)، ومن الأوربيين أنفسهم (فان تيغم، وفوسلر، وكاريه، وبالدنسبرغيه) ممن دعاهم ويليك بسادة الميدان، قد مضوا إلى جوار ربهم بحلول ستينيات القرن الماضي(9).

وكان وراء هذه المساءلة وافد جديد من أوربة أيضاً هو النظرية النقدية والنظرية الثقافية التي دعت إلى الاهتمام بالسياق المحيط بالنص الأدبي والاستعانة على درسه بمختلف المعارف الإنسانية، فضلا عن ضرورة النظر إليه في إطار أوسع من النشاط الإنساني الفني والثقافي والمعرفي، مما خلف أثراً واضحاً في طبيعة الدرس المقارن للأدب في الولايات المتحدة تجلّى في مفهوم الدرس المقارن الذي طرحه هنري رماك في مقالته المشهورة التي غدت ورقة عمل جل المقارنين الأمريكيين ومن حذا حذوهم حتى ظهور ما يسمى بالدراسات ما بعد الاستعمارية التي أسسها إدوارد سعيد، وأعلن عنها في كتابه الاستشراق (1978).

وهكذا شهد عقد الستينيات الأمريكية حضور حركات عديدة وفدت إلى الولايات المتحدة الأمريكية من مختلف الأقطار الأوربية وأيقظت لدى المقارنين الأمريكيين روح إعادة النظر والتغيير، ثم التبني والتطوير والتوطين، أو لنقل فتحت شهيتهم للتفكير في الجانب النظري من ممارستهم، وفي مناقشته، وفي تفحص افتراضاته الضمنية، وفي جدوى الإفادة من العلوم والمعارف التي حملتها هذه الحركات في مقارباتهم المقارنة للنصوص التي لم تعد تقتصر على نصوص الأدب الغربي، وتوسعت دائرتها لتشمل نصوصاً من الأطراف والضواحي، مما قلقل أسس القانون الأدبي الغربي، وفرض إعادة النظر بهذه الأسس استناداً إلى معطيات النظرية النقدية والنظرية الثقافية الوافدتين من الشاطئ الشرقي للأطلسي.

يكتب غرايم تيرنر Graeme Turner مؤلف كتاب الدراسات الثقافية البريطانية: مدخل British Cultural Studies (ط 3 - 2003) في مقدمة مدخل entry "الدراسات الثقافية" Cultural Studies في المجلد الثالث من موسوعة النظرية الأدبية والثقافية Encyclopedia of Literary and Cultural Theory (وايلي وبلاك ويل، 2011)، والمخصص برمَّته للنظرية الثقافية –مما يعدُّ مؤشراً واضحاً على حجم دورها المتنامي في الدراسات النظرية المتصلة بالأدب والثقافة في عصرنا الراهن:

"لقد كانت الدراسات الثقافية ضمن أكثر الحقول المعرفية النظرية تأثيراً، وهي بالتأكيد، من بين العلوم النظرية الجديدة، المتداخلة المعارف، والتي انبثقت في ميدان الإنسانيات والعلوم الاجتماعية في عقد السبعينيات وما بعدها، أكثرها خلافية.

وكان لها تأثير في التوجيه النظري لمناهج البحث في مجال واسع بين العلوم المرتبطة والمجاورة. ففي هذا المجلد وحده (يقصد أحد مجلدات الموسوعة الثلاثة)، تُلاحَظ أهمية تأثير الدراسات الثقافية من حيث صلتها بدراسات الفيلم، ودراسات التلفزيون، ودراسات الوسائل الإعلامية، والدراسات الأدبية، ودراسات الاتصالات. والكثير من لبّ الحركات النظرية المنبثقة ضمن العلوم الإنسانية منذ السبعينيات – البنيوية، وما بعد البنيوية، وما بعد النزعة الحداثية على سبيل المثال – واصل مسيرته بزخم قوي من خلال مشروعات الدراسات الثقافية، في حين إن تركيزها على مقولات معينة من التحليل

(الجماهير على سبيل المثال) قد انسرب في كثير من الميادين المعرفية الأخرى.

وهذا الامتداد المتداخل المعارف للدراسات الثقافية غالباً ما كان استحواذياً، وقد استمد الميدان مزيجه الاقتطاعي في المنهجيات والاستبصارات النظرية من التاريخ، والأنتروبولوجيا، والجغرافية الثقافية، ونظرية الفيلم، وعلم الاجتماع، والفلسفة الأوربية، والنظرية الأدبية، إذا ما أردنا تسمية قلة منها"(10)

لقد وجد المقارنون الأمريكيون أنفسهم وجها لوجه مع حركات عديدة فتنتهم، ومن ثمَّ صرفتهم عن مقاربة النقد الجديد للأدب، مثلما جعلتهم يزهدون بالمقاربة الفقه ـ لغوية للمقارنين من أصول أوربية، وكان من أبرز هذه الحركات الحركة البنيوية، وما تلاها من اتجاهات ما بعد بنيوية، ومن مقاربات تقوم على التحليل النفسي، ونظريات ماركسية ونسوية (من فرنسا)، وتوجهات هيرمينوتيقية Hermeneutics(تأويليه) من ألمانيا، ودراسات سوداء ودراسات ثقافية (من بريطانيا)، واتجاهات فلسفية أوربية من مثل مدرسة فرانكفورت، والفلسفة الظاهراتية، مما يسَّرَ زاداً نظرياً غنياً يمكن الصدور عنه في تدبّر أركان العملية الأدبية من منتِج أو مؤلِّف طالما أغفله النقد الجديد بحجة المغالطة القصدية Intentional Fallacy، ومستهلك أو قارئ أهمله النقد الأدبي المفتون بالنصوص وحدها، ونص ينتمي إلى العالم الذي أُنتِج فيه، وليس كما توهَّم أتباع النقد الجديد ورأوا فيه كياناً قائماً في فراغ.

وربما كان من أهم ما نتج عن هذه المواجهة مع النظريتين النقدية والثقافية، وما حملتاه معهما من اتجاهات وحركات ومقاربات ظهور ما يمكن أن يسمى بـ meta-theory، أو نظرية عن النظرية، والتي أفضت في نهاية المطاف إلى توطين هذه الاتجاهات والحركات والمقاربات ومنحها الجنسية الأمريكية، مما ميزها عن نظرياتها الأوربية باستجابتها لطبيعة الأدب الأمريكي التعددية: ثقافةً ولغةً وعرقاً وديناً. وهكذا تطورت البنيوية وما بعد البنيوية إلى نسختها الأمريكية على يد جوناثان كولر، وبول دومان وجفري هارتمان وهيليس ميلر، وخرج الثلاثة الأخيرون مع جاك ديريدا بتنظيم مافيا ييل، أو نقاد ييل(11) Yale Critics من المفككين، وتحولت النظرية النسوية إلى الطبعة الأمريكية التي خرجت مشفوعة بدراسات النوع أو الجندر، مثلما تحوّلت الدراسات السوداء إلى الدراسات الأمريكية ـ الإفريقية، وتحوّلت الدراسات الثقافية إلى الدراسات الثقافية الأمريكية التي اتخذت مساراً خاصاً بها اتسم بتنوعه واتساعه ليشمل أشكالا من المنتجات الثقافية لم يفكر بها أعلام الدراسات الثقافية البريطانية من أمثال ريتشارد هوغارت أو ريموند ويليامز أو ستيوارت هول، واغتنت النظرية الماركسية بدراسات فريدريك جيمسون، التي طعَّمتها بالدراسات البنيوية وما بعد البنيوية فضلاً عن الدراسات ما بعد الحداثية، وقد مهّد كل ذلك الأرضية لظهور دراسات مقارنة تميزت بأمور ثلاثة:

أولها إحلال المقاربة الآنية synchronic approach محل المقاربة التاريخية diachronic مستفيدة في ذلك من كتابات سوسير، ورومان جاكبسون، ورولان بارت، وجوليا كريستيفا وغيرهم.

وثانيها: تحدّي القانون الغربي المسرف في تمركزه حول الذات، بسبب من ضيق أفقه، واعتباطيته، ومن ثمَّ مساءلة مقولاته، وأعرافه وقيمه ومعاييره.

وثالثها الالتفات إلى نتاج "الآخر" الذي طالما قام القانون الغربي بتهميشه، ودفعه إلى محيط دائرة الأدب العالمي، وإهماله بوصفه أدب ضواح، أو أدب أطراف، غير جدير بالاهتمام لأنه لا يرقى لأدب الحواضر والمراكز في لندن وباريس وبرلين ونيويورك.

ومما عزز هذا الالتفات أن أعلاماً من آداب هذه الضواحي والأطراف قد ظفروا بتقدير عالمي بعد منحهم جائزة نوبل للآداب من أمثال طاغور، ونيرودا، وماركيز، وسوينكا، وأوي، ونجيب محفوظ وغيرهم، مما أكد جدارة هذا المسعى، الذي تبوأ مكانة رفيعة مع ظهور كتاب الاستشراق، وولادة ما يسمى بالدراسات ما بعد الاستعمارية التي طرحت القراءة الطباقية contrapuntal reading سبيلاً للدرس المقارن، ومقاربة لا غنى عنها من أجل فهم أدب التركة الإمبريالية Imperial Legacy.

هوامش:

1ـ انظر: رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة 110، (المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شباط 1987)، ص371.

2ـ انظر: المرجع السابق، ص 372.

3ـ انظر:

Henry H. H. Remak, "Comparative Literature: Its Definition and Function", in: N. P. Stallknecht and H. Frenz (edits.), Comparative Literature: Method and Perspective, Revised Edition, (Arcturus Books, Southern Illinois University Press, Carbondale and Edwardsville, 1971), p.18.

4ـ انظر: إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية وقدم له كمال أبو ديب (دار الآداب، بيروت، 1996) ص ص (111- 112).

5ـ انظر فصلي "الساعة الفرنسية" "The French Hour" و"الساعة الأمريكية" "The American Hour" من كتاب كلوديو غوين تحدي الأدب المقارن:

Claudio Guillen, The Challenge of Comparative Literature, Cola Franzen, Translator, (Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts and London, 1993). Pp. 46-62.

6ـ انظر في هذا السياق النقد العنيف الذي وجهه رينيه ويليك إلى المدرسة الفرنسية في خطابه الذي ألقاه في المؤتمر المذكور آنفاً، والذي أشار فيه إلى عورات الدرس المقارن للأدب على الطريقة الفرنسية التي انشغلت بمسألة التأثيرات المتبادلة فيما بين الآداب القومية المختلفة لغة والمتواصلة فعلاً، فذكر إخفاق هذا الدرس في تحديد دائرة عمله ومنهجيته، وأضاف في معرض حديثه عن أعراض الأزمة الناجمة عن هذا الإخفاق:"هذا التحديد المصطنع لمادة البحث ومنهجيته، وهذا المفهوم الميكانيكي للمصادر والتأثيرات، وهذا الاعتماد على القومية الثقافية مهما بلغ من سعة أفقها وكرمها – كل هذه الأمور تبدو لي أعراضا لأزمة طويلة الأمد في الأدب المقارن". وانظر: رينيه ويليك، "أزمة الأدب المقارن"، في:مفاهيم نقدية، ص ص362- 375.

7ـ انظر:

W. K. Wimsatt, The Verbal Icon: Studies in the Meaning of Poetry (Methuen, London,1970).

8ـ انظر:

Kenneth Surin, "Comparative Literature in America: An Attempt at a Genealogy", in: The Blackwell Companion To Comparative Literature, Edited by Ali Behdad and Dominic Thomas, (Blackwell, Oxford, 2011), pp. 65-66.

9ــ انظر: رينيه ويليك، "أزمة الأدب المقارن"، في: مفاهيم نقدية، المرجع السابق، ص 368.

10ـ انظر:

Graeme Turner, "Cultural Studies", in: Michael Ryan, (General Editor), Encyclopedia of Literary and Cultural Theory, Volume III, Cultural Theory, Edited by M. Keith Booker, (Wiley-Blackwell, 2011), p.1014.

11ـ انظر بيانهم النقدي في:

Harold Bloom et al., De-construction and Criticism (Routeledge and Paul Kegan, London, 1979).

وانظر عنهم كتاب:

Jonathan Arc et al., (Editors), The Yale Critics: Deconstruction in America (University of Minnesota Press, Minneapolis, 1983).

❑❑